(التعريف والنقد)
نظرة في القصيدة الأولى
من ديوان النابغة الشيباني

الأستاذ يوسف الصيداوي

كنت أرسلت هذه المقالة من قبل إلى مجمع اللغة العربية بدمشق ، ليرى رأيه في نشرها في مجلّته . وهتف إليّ مِن بَعدُ ، الأستاذ أحمد راتب النفاخ – رحمه الله رحمة واسعة ، وجعل جنّة الخلد مأواه – يعلمني أنْ قد ووفق على نشرها في المجلة ، وأنه يحب أن يدارسني أشياء فيها قبل نشرها . فشكرت له اهتمامه ؛ وتحدثنا بالهاتف مرّات ، ثمّ لقيته في بيته مرّتين ، وكان حاضرَ ذلك الأخ الأستاذ عزّ الدين البدوي النجار .

ولبث بعد ذلك زمناً ، كلما عنّت له خاطرة ، هتف إليّ يذكرها ، أو يحضّني على التنقيب عمّا يتعلّق بها ، لعل مرجعاً يسعف برواية تقطع الظن باليقين ، أو قولٍ لإمامٍ يقيّد شاردةً تكون على ذلك عوناً .

ويتتالى ذلك مرة ومرة ومرة ؛ لا توهُّج قلبه يخمد ، ولا إجلالي له يعيد المقالة إلى المطبعة . حتى لقد رأيتني بعد حين منصرفاً إلى تأمّل هذا الشغف النبيل ، الذي تجاوز الهوى إلى الهيام ، لعلّي أدرك سرّ تدفّقه ، من قلب ذلك الرجل الفذّ .

وكنت على أن أعيد النظر فيما أثاره من ملاحظات ؛ ثمّ تصرفني شؤون الحياة عن ذلك زمناً فأغفل . ثمّ أفتح عينيّ على زلزالٍ فقده ؛ وأنظر ، فأجد بين يديّ من ملاحظاته كنزاً ، لا أجيز لنفسي إمساكه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولا إنفاقه . وأبدئ وأعيد ، ثم أصل من بعد إلى قرارة ، أطمئن فيها إلى أن مال « قيصر » لا يتلبّس به مال .

فأمّا ملاحظاته – رحمه الله – فمشارٌ إليها ، منوّه بها ، لم يمنعني من إيرادها أن تكون عليّ . فلا مساس .

وأمّا الذي أجريت القلم فيه من المقالة ، زيادة أو نقصاً ، فمحكوم باستيلاء النقص على جملة البشر ، مستظل بخلود مقوّلة العماد الأصفهاني : [إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه ، إلاّ قال في غده : لو غُيّر هذا لكان أحسن – ولو زِيد كذا لكان يستحسن ، ولو قُدّم هذا لكان أفضل – ولو تُرك هذا لكان أجمل] . فالذي في المقالة لفظاً ومعنى ، يمثلني إذاً وحدي ، بما له وعليه .

كان الأستاذ أحمد نسيم حقّق ديوان [النابغة الشيباني] ، فصدر مطبوعاً بالقاهرة سنة ١٩٣٢م .

ثمّ عمد الدكتور عبد الكريم إبراهيم يعقوب إلى إعادة تحقيقه . ونشرته وزارة الثقافة والإرشاد القومي بدمشق سنة ١٩٨٧م .

وقد قدّم الدكتور المحقّق لعمله هذا بنحو سبع وعشرين صفحة ، أدار فيها الحديث حول نسخ الديوان الخطّية ، ومنهجه في التحقيق الخ ... ثم أتبع ذلك شعر الشاعر .

ولقد قرأتُ الديوان ، ودوّنت ملاحظات . وكادت مكانة الشاعر تغريني فأبسط القول في ذلك كلّه . ولكنني رأيت أنّ هذا محتاج إلى حيّز قد تشرق المجلّة به[1] ، وأن القليل قد يجزئ فيدلّ على الكثير . فعزمت أن

---

(١) علّق الأستاذ النفاخ – رحمه الله – على قولي هذا ، فقال : إن المجلة لا تشرق بذلك . وحضّني على العودة إلى قراءة الديوان ، والنظر في رواياته ، وفيما أورده المحقّق من شروح وآراء ، وأن أكتب في كل ذلك ؛ فاعتذرت .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أقف عند قصيدة واحدة من الديوان . وكدت أختار ، ثم عزفت عن ذلك ، لما في الانتقاء من مظنّة الميل والانحياز ، وآثرت أن أقصر الحديث على القصيدة الأولى من الديوان ، فذلك أقرب إلى العدل ، وأحرى أن يدفع شبهة الهوى .

ولقد حرصت أن تكون أرقام الأبيات هنا ، هي أرقامَها نفسَها في الديوان ، وأن يكون ضبْط المفردات هو ضبْط المحقّق حرفاً حرفاً ، ليكون من يقرؤها هنا ، كأنه يقرؤها في الديوان .

يتقدّم القصيدةَ نسبُ الشاعر ؛ والأستاذ المحقق يجشّم نفسه عناء تخطئة خمسة عشر مرجعاً ، قال إن نسب الشاعر ورد فيها محرّفاً ، أو مصحّفاً . غير أن الذي أضعف حجّةَ الأستاذ الدكتور ، أنه لم يذكر سبب اجتزائه بتخطئة هذه المراجع وحدها ، ولِمَ لَمْ يزد من ذلك أو ينقص . ولا ذكر المصدر الذي اعتمده في التخطئة والاستصواب . بل اكتفى بأن قال : [وهو خطأ] ، [وهو تحريف] ، [وكلّها تصحيفات وتحريفات] . فكان ذلك – حتى لو صحّ – دعوى بغير دليل .

وتسير القصيدة :

١ – أرقتُ وشرُّ الداءِ همّ مؤَرَق　　كأني أسيرٌ جانبَ النومَ مُوْثَق

والصواب : [مؤرِّق] بكسر الراء . اسم فاعل من [أُرِّق – يُؤرِّقُ] وقد أغفل المحقّق وجهاً آخر لـ [جانب النوم] ، كان أحمد نسيم قد نبّه عليه ، بأن أورد ضبْط الوجهين ، فتحاً وكسراً : [جانِبَ النومَ] ، وقال : [هذا الشكل كما هو في الأصل ، والمراد به احتمال الوجهين] .

ومع أننا نرجّح الرواية التي أخذ بها الأستاذ المحقّق ، إنّ إغفالَه الوجهَ الثاني ، والإعراضَ عنه كأنه لم يكن ، تضييع وتحكّم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

٢ – تذكّر سلمى أو صريعٌ لصحبه يقول إذا ما عزّت الخمرُ : أَنْفِقوا

ضبَط أحمد نسيم كلمة [تذكر] بضم الكاف وفتح الراء : [تذكُّرَ] ، وأمّا المحقّق فأغفل ضبطها ، إلا الكاف فشدّدها : [تذكّر] ، مع أن الكلمة تحتمل وجوهاً .

أ – تذكَّرَ : فعلاً ماضياً ، يرجع ضميره إلى [أسير] .

ب – تذكُّرُ : بضم الكاف والراء ، على البدلية من [هَمٌّ][٢] .

جـ – تذكُّرَ : وهو ما اختاره أحمد نسيم ، فكأنه انتصاب على نزع الخافض ، وأن الأصل : [هَمٌّ مؤرِّقٌ مِن تذكُّر سلمى] .

٤ – يقول الشُّروبُ : أَيُّ داءٍ أصابه أَتخبيلُ جِنٍّ أم دهاه المُرَوَّقُ

قال الأستاذ المحقّق في الشرح : [أتخبيل : من الخبل والخبال ، وهو الفساد في العقول والأفعال والأبدان ، وهو هنا الفساد في العقل ، أي الجنون] اهـ .

قلت : الصواب أن يقال : [هو الإفساد] لا [الفساد] . وذلك أن تفسير [التخبيل] بـ[الفساد] فيه إلغاء لما تجلبه همزة النقل من معنى التعدية ، وحرمان [التخبيل] من معنى الفعل ، فيصير المعنى بالإضافة المحضة : [أجنون جنّ] ؛ ولم يقل أحد إن للجن جنوناً ، وإنما الذي يقال ، إن الجن تصيب الإنس بالجنون ، فتخبّلهم تخبيلاً ، فتفسد عقولهم إفساداً .

---

(٢) رحمه الله ، لم يرتح لاحتمال أن يكون [تذكُّرُ] بدلاً من [همٌّ] في البيت الأول ، وذلك لبعد ما بين البدل والمبدل منه ، وإن كان لم يتذكّر حكماً نحوياً يحول دون البدلية ، في هذه الحال .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٦ – وأعجبَ سلمى أنّ سلمى كأنّها من الحُسْنِ حوراءُ المَدامعِ مُرْشِقُ

ضبط الأستاذ المحقّق كلمة [أعجبَ] بفتح الباء ، فهي على ذلك فعل ماض . فاعله المصدر المؤوّل : [أنّ سلمى ...] ، وهو وجهٌ ترضى به النفس ؛ غير أن الأستاذ المحقّق أغفل الرواية التي أخذ بها أحمد نسيم وهي : [وأعجبُ سلمى أنّ سلمى ...] ، على أن [أعجبُ] اسم تفضيل . منظوراً في ذلك إلى أنّ في سلمى فنوناً من العجب تتفاضل ، وأن الأصل : [وأعجبُ أمورِ سلمى ...] ، ثمّ حذف المضاف .

وذلك وجهٌ كان جديراً بأن يُذكَر مصدرُه ، وأن تُضاء جوانبه ، وأن يُقْبَل أو يُردّ .... وأما إغفال كلٍّ ذلك ، والاقتصارُ على ضبط الباء بالفتح ، فهوى نَفْس .

٧ – دعاها إلى ظلٍّ تُزجّي غزالَها مع الحَرِّ عُمْرِيٌّ من السِدْرِ مُوْرِقُ

قال المحقّق في ترجمة السدر : [واحدته سدرة وجمعها سدرات وسدرات وسدرات] ، فأورد للسدرة – كما ترى – ثلاثة جموع متماثلة ، خالية من الشكل ، وهو يريد : [سِدْرات وسِدِرات وسِدَرات] .

وما إيرادُه [السدرةَ] إلا استطراد، ولا إيرادُه [السدراتِ ...] إلا استطرادٌ على استطراد . وحتى لو ضَبَطَ هذه الجموعَ بالشكل لما فَعَل شيئاً . فجمْع [سِدرة] على [سِدْرات وسِدِرات وسِدَرات] جمع قياسيّ . وإذا كان الأستاذ المحقّق رأى المعاجم تورد هذه الجموع فسار في هديها ، فإن المعاجم لا توردها – وهي قياسية – عبثاً . وإنما توردها في خلال ذِكْر جموع [السِدرة] سالمةً ومكسّرة . وفي كل حال إنّ بين عمَلِ المحقّق وعملِ المعجمي فرْقاً لم يلتفت إليه الأستاذ المحقق ، لا في هذا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

البيت ، ولا في كثير من الأبيات الأخرى . يَدُلُّك على ذلك شرحُه للبيت الثامن :

٨ – تَعَطَّفُ أحياناً عليه وتارةً
تكادُ – ولم تَغْفُلْ – من الوجد تَخْرَقُ

فالبيت واضح المعنى ، ولكنّ الأستاذ المحقّق أفاض في شرح [تخرق] فكتب فيه ثلاثة أسطر ، منها ما يناسب معنى البيت ، ومنها ما لا يناسبه ، ومنها ما لا ينظر إليه بحال . وإليك شرح المحقّق كما جاء حرفيّاً :

أ – [تخرق : تدهش وتتحيّر فلا تدري ماذا تفعل] .

قلت : هذا مناسب لمعنى البيت .

ب – [يقال : خرق الظبي أي دهش ولصق بالأرض إذا رأى الصائد فلم يقدر على النهوض من خوف ، ويقال : أخرقه الفزع أي أدهشه] .

قلت : هذا لا يناسب معنى البيت ، لأن المعنى فيه ، هو حَيْرَة مَنْ بِه الحُبُّ والوجد ، لا اللصوق بالأرض من الخوف .

جـ – [ويقال : ناقة خرقاء ، أي لا تتعهد مواضع قوائمها] .

قلت : هذا لا ينظر إلى معنى البيت بحال ، وإنما هو استمدادٌ من المعاجم مفتقر إلى التبصّر .

١٠ – إذا قَتَلَتْ لم يُؤْدَ شيئاً قَتيلُها
بَرَهْرَهَةٌ رَيّا تُوَدُّ وتُعْشَقُ

أثبت الأستاذ المحقّق الهمزة فوق الواو : [لم يُؤْدَ] ، فحالَ المعنى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عمّا أراد الشاعر . وذلك أنّ [لم يؤد] إمّا أن يكون مِن [أَدّى فلاناً] – وِزان فَعَلَ – إذ اختله ، واللبنَ إذا مخضه] ، وهذا ليس مقصوداً . وإمّا أنْ يكون من [آداه] – وِزان أَفْعَلَ – إذا أعانه] ، وهذا ليس مقصوداً كذلك .

والصوابُ البيِّن حذفُ الهمزة : [لم يُودَ] لأنه مِن [وَدَى القاتلُ القتيلَ – يَدِيهِ ، دِيَةً] إذا أعطى وَلِيَّه المالَ الذي هو بدل النفْس .

١١ –وَتَبْسِـــمُ عن غُـرٍّ رُواءٍ كأنهـا
أَقَـاحٍ بـريّـانٍ من الروض مشـرق

ضبَط الدكتور المحقّق كلمة [رواء] بكسر الراء وضمِّها ، ليدلّ بذلك على صحّة الوجهين – في اعتقاده – وقال في الحاشية : [الرواء بضم الراء تعني حسنة المنظر ، وبكسر الراء : جمع ريا وريانة وهي المرتوية] اهـ .

قلت : هذا شرح مرتجل ، فالرُّواء كلمة لم تستعملها العرب في معنى [حَسَنَةِ المنظر] أو [حَسَنِ المنظرِ] كما وَهِمَ الأستاذ المحقّق ، وإنما استعملتْها في معنى [المنظرِ الحَسَنِ] . وشتّان ما بين [حَسَنَةِ المنظر] و[المنظـرِ الحَسَـن] . يقـال : [فلان له رُواءٌ] ، أي له منظرٌ حَسَن . ولا يقـال : [الأسنان رُواءٌ] وأنت تعني : الأسنانُ حَسَنَةُ المنظر ، وإنما يقـال : [في الأسنـان رُواء] ، أي فيهـا حُسْنٌ . فكمـا أنّك لا تقول : [الأسنانُ جَمالٌ] ، لا تقول : [الأسنان رُواءٌ] . قال أوس بن حجر – ديوانه/١٣٠ :

إذا الحربُ حَلَّتْ ساحةَ القومِ أَخْرَجَتْ
عُيـوبَ رجـالٍ يُعْجِبونكَ في الأَمْنِ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولِلحـربِ أقـوامٌ يُحـامُونَ دُونَهـا
وكَمْ قد تَرَى مِنْ ذِي رُواءٍ ولا يُغْنِي

ثم إن [الغُرّ] جمعٌ لمؤنث ، و[الرُّواء] مفردٌ لمذكر ، وكيف يوصف الجمع المؤنث – هنا – بالمفرد المذكّر ؟ .

الصواب ضبْط الراء بالكسر [رِواء] ليس غير . إذ [الرِواء] جمع [رَيّا] . ففي اللسان : [امرأةٌ رَيّا مِن قومٍ رِواء] . فإذا قلت : [الأسنانُ الرِواء] فالمعنى : الأسنان المرتوية ، أي التي ظَهَر الريق فيها ، فكأنها ارتوت – ضد عطشت – وهو مما تحبّه العرب وتمتدحه .

١٤ – تكـون وإنْ أعطتكَ عهـداً كأنهـا
إذا رُمْـتَ منهـا الودَّ نجـمٌ مُحَـلِّقُ

١٥ – فـبرَّحَ بي منهـا عُـداةٌ فصرمُهـا
عـلـيّ غـرامٌ وادِّكارٌ مُشَـوِّقُ

وإنما أَوردْتُ البيتين معاً لِاتّصال معناهما ، وبناءِ ثانيهما على أوّلهما . وقد ضبط المحقق كلمة [عُداة] بضم العين ، وجَعَلَ التاء مربوطة وإنّما [العُداة : الأعداء جمع عَدُوّ][٣] ، والمعنى – على ما ضبطه الأستاذ المحقّق – هو : [فبرّح بي منها أَعْداء] وهو وَهَمٌ بيّن . وإنما الصواب :

---

(٣) علّق على قولي : [والعُداة الأعداء جمع عدوّ] ، فقال : [العدوّ جمعه الأعداء] . قلت : إنني لا أدفع عن نفسي ، ولا أدّعي لها العصمة ، ولكن للحجّة حقّها من البيان ، فعبارتي لا تنصرف – كما قرّر رحمه الله – إلى أن العدوّ بالضرورة جمع للعُداة . ومهما يدر الأمر ، فقد أراد بملاحظته هذه أن [العُداة] وإن كان معناها – كما ذكرتُ – هو [الأعداء] ، فإن العدوّ لا يجمع على [عُداة] بل يجمع على [أعداء] . وأما [العُداة] فمفرده [عادٍ] ، ومثله : [قاضٍ وقُضاة ، ورامٍ ورُماة ، وداعٍ ودُعاة ...] .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

[عِدات] بكسر العين ، وبالتاء المبسوطة ، لأنّه من [وَعَد – يَعِد ، عِدَةً] والجمعُ عِدات .

يدّلك على ذلك قولُ الشاعر في البيت الأول /١٤/ : [تكون وإنْ أعطتك عهداً كأنها ...] ، ويريد به أنها – وإن وعدتك وأعطتك عهداً – لا تفي بما وعدت ، ولذلك برّح بالشاعر عِداتٌ منها لا تتحقّق . ولا التفاتَ إلى قائل يقول : إن الذي برّح بالشاعر أعداءٌ حالوا بينه وبينها ؛ وذلك أن الشاعر قال : فبرّح بي منها عدات ، أي عدات كائنة منها . والجار والمجرور هنا أبانا عن أنّ العِدات منها ؛ ولا معنى لـ[أعداء منها] ، فأنت لا تقول : عاداني أعداء من زينب أو خديجة ... والذي ذهب إليه المحقّق وَهمٌ بيّن .

١٩ – وزرعٌ وكلُّ الزّرعِ يُشبهُ أصلَه
هُمُ وُلِدوا شتّى مُكِيسٌ ومُحْمِقُ

عَرَضَ الشاعر لصنوف الناس فقال في البيت /١٨/ : [وللناس أهواء ...] ثم أتبعه البيت /١٩/ . وقد ضبط الأستاذ المحقّق [وُلِدُوا] بضمّ الواو ، وكسر اللام ، بالبناء للمجهول . ولا أرى ذلك معيناً على بيان إرادة الشاعر . ذاك أنّ قوله : [مُكيسٌ] هو مِن [أكاسَ] أو [أَكْيَسَ] ، إذ وَلَدَ أولاداً أكْياساً ؛ وقوله : [مُحْمِق] هو مِن [أَحْمَقَ – يُحْمِق] ، إذا وَلَدَ أولادًا حَمقى .

فالناس عند الشاعر كالزُّرّاع ، فهؤلاء يزرعون بَذْرَهم في الأرض ، وأولئك يزرعون أولادهم في أرحام أمهاتهم . فمنهم أبٌ وَلَدَ أكياساً ، فهو مُكِيس ، ومنهم أبٌ وَلَدَ حمقى فهو مُحْمِق ، فهمْ على ذلك قد [وَلَدُوا شتّى] ، فكانوا مُكِيساً ومُحْمِقاً .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولو قبلنا ما اختاره الأستاذ المحقّق من بناء الفعل للمجهول ، لكان ما يتحصّل من المعنى ، دائراً حول الآباء وحدهم ، أي : الآباء وُلِدُوا ، ولَضاع ما قصد إليه الشاعر مِن زارع ومزروع ، ووالد ومولود ، في قوله : [وكلُّ الزرع يشبه أصله] . والذي يدلّك على إرادة الشاعر هو قوله : [زَرْعٌ] بالضمّ والتنوين . فإنه إتمامٌ لقوله : [وللناس أهواءٌ] ، أي : [للناس أهواءٌ وللناس زَرعٌ] .

وعلى ذلك يكون الضبط المعبِّر عن إرادة الشاعر هو : [وَلَدُوا] بالبناء للمعلوم(٤) .

٢٣ – ولم يأته عنّي من الشتم عاذرٌ خلا أنّ أمثالي تُصيبُ وتَعْرُقُ

جاء في شرح الأستاذ المحقّق : [العاذر : أثرُ الجرح أو غيره] .

قلت : صحيح أنّ من معاني [العاذر] أثرَ الجرح ، ولكنْ ليس هذا موضعَه . وذاك أن الذي يأتي من الهاجي ليس أثَرَ الجرح ، بل الجارح نفسه ، وهو الهجاء . وعلى ذلك ، إن العاذر في البيت اسم فاعل من [عَذَرَه – يَعْذِرُه] إذا رَفَعَ عنه اللوم . ويريد الشاعر : أنّ مَن يحقد عليّ لم يأته مني هجاء يكون عاذراً له في حقده عليّ . وكل الذي كان مني أنّ أمثالي تصيب وتعرق . فما ذَنْبي إذا كان الأمر كذلك ؟ .

٢٦ – وغيّرها جون رُكامٌ مُجَلْجِلٌ
أجسُّ خصيفُ اللون يخبو ويَبْرُقُ

٢٧ – يلالي وميضٌ مستطيرٌ يَشُبُّهُ
كما جال في دُهْمٍ من الخيل أبْلَقُ

---

(٤) ذكر – رحمه الله – أن ما أخذ به المحقّق غير ممتنع . قلت : وإننا لنسلّم بأنه غير ممتنع ، ولكنْ بين ما لا يمتنع وبين إظهار إرادة الشاعر فَرْق .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٢٨ – تَنوءُ بأحمالٍ ثِقالٍ ، وكلُّها

– وقد غرقتْ بالماء – ريّانُ مُتْأَقُ

لقد أوردتُ الأبيات الثلاثة معاً ، لترابطها ، وأمّا همّي فالبيت الأخير . وهو قول الشاعر : [تنوء بأحمال ..../٢٨] ، فقد أَوْرد فيه المحقّق فِعْلَ [تَنُوء] بالتاء ، وهو على هذه الرواية ، لا مرجع لضميره المؤنث ، لا مفرداً ولا جمعاً .

والوجه التذكير : [ينوء] بالياء ، ويهدي إلى ما نذهب إليه قولُ الشاعر :

٢٩ – كأنّ مصابيحاً غذا الزيتُ فُتْلَها

ذُبالاً به باتت إذا الْتَجَّ تَذْلَقُ

فالضمير في قوله : [ذبالاً به] ، إنما يعود إلى [الجون] ، إذ الأصل في نظم التركيب : [كأنّ مصابيحَ به غذا ...] .

كما يهدي إليه قولُه في البيت/٣٠ : [كأنّ خلايا فيه] ، أي : في الجَوْن . .

٣٠ – كأنّ خلايا فيه ضلّتْ رِباعُها

ولَجّةُ حُجّاجٍ وغابٌ يُحَرَّقُ

فأما شارح الديوان – في المتن – فقد شرح كلمة [خلايا] فقال : [خليّة النحل ، تجمع على خلايا] .

وأما الأستاذ المحقّق فقد صرف وجهه عن هذا الشرح ، فلم يقف عنده ، ولا علّق عليه . بل تخطّاه فقال : [خلايا : جمع خليّة ، وهي الناقة المُطْلَقَة من العِقال . الرباع جمع ربع – كمضر – وهو الفصيل ينتج في الربيع وهو أوّل النتاج] اهـ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قلت : هذا الذي قاله الدكتور المحقّق يُرى في المعاجم ، ولكنّه غير مقصود هنا ، وأبيّن لك الأسباب :

أولاً : لقد ضبط الدكتور المحقّق كلمة [رباعها] بضمّ العين ، كأنها فاعل [ضلّت] . وكأن الشاعر أراد إلى أن الرباع ضاعت ، فحنّت أمّهاتها ، فهمهمة الرعد في السحاب ، كحنين النوق المولّهة ، إذ تنزع إلى أولادها .

وهو معنى جيّد ، قد طالما تعاوره الشعراء ، ومنه قول الشاعر :

فما وَجَدَتْ كَوَجْدِي أُمُّ سَقْبٍ أَضَلَّتْهُ فَرَجَّعَتِ الحَنِينَا

غير أن الأستاذ المحقّق ، إذ ضبط كلمة [رباعها] بالضمّ ، قد أضاع سَمْتَ الشاعر ، وفَصم عُرى الصلة العاطفية بين النوق وضلالِها أولادَها ، وترك التعبيرَ مجوَّفاً مَنْخوباً .

هذا ، على أنّ تأمُّل العبارتين التاليتين ، قد يوضح ما جلبته هذه الضمة من آثار ، وذلك أن البون شاسع .

بين قولك : [الناقةُ ضاع ولدُها] وقولك : [الناقةُ أضاعَتْ ولدَها] فالعبارة الأولى ليس فيها إلا أن ولد الناقة ضاع ، على حين ترى في العبارة الثانية أُمّاً أضاعت ولداً . فكم بين أن يَضيع وَلَدٌ ، وبين أن تُضيِعَه أمُّه من البون ؟! ولو أن الأستاذ المحقّق ضبط [رباعها] بالفتح ، على أنها مفعول به لِـ[ضَلّت] ، لظلّت الصلة قائمةً بين النُّوق وبين ما أضلّته من الأولاد ، فرأيتَ أمهاتٍ فَقَدْنَ فَتَوَلَّهْنَ فَحَنَنَّ .

وكان للمحقّق سبيل ثالثة : أن يهمل ضبط الكلمة – كما أهمل ضبطَها من قبله أحمد نسيم – فيترك للقارئ أن تدلّه ثقافته ، ويرشده إحساسه ؛ ولكنه لم يفعل .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ثانياً : إن الذي نراه : أن المعنى هو ما ذهب إليه شارح الديوان في المتن ، من أن الخلايا هي خلايا النحل ، تَضِلُّ رباعَها [أي الأماكن التي تعسّل فيها] . وقد يكون ذلك في كُوّارات ، أو في صخور الجبال ؛ فتطير آلافاً : مجتمعةً متلاحقةً ، وتَحُطُّ آلافاً مجتمعةً متلاحقةً ، فَتَسْمع لها دويّاً وهديراً ، لا يشبهه شيء ، كما تشبهه همهمة الرعد ، ولقد كان من النِّعَم التي لا تُنسى أنْ رأينا ذلك مصادفةً وسمعناه ، ويا له من منظر !! ويا له من صوت !! .

هذا ، ومع أن تشبيه همهمة الرعد بحنين النوق ، أو العكس ، واردٌ مِن حيثُ المبدأ – كما يقال اليوم – فإن الشاعر إنما يجلو إرادته بصُوَرِه ، ويُفْصِح عنها بألفاظه ، والنابغة الشيباني لم يترك في هذا البيت لمتقوّل أن يتقوّل . فقد جلا إرادته وأفصح عنها ، إذ حرص على تقريب تلك الأصوات إلى الآذان والأذهان ، فقال : [ولَجّةُ حُجّاجٍ وغابٌ يُحَرَّق][٥] .

وذاك أن أصوات لجّة الحجاج والغاب الذي يحرّق عظيمةُ الشَبَه بأصوات خلايا النحل وقد ضلّت كوّاراتِها ، لا حنين الناقة الملتاعة الذي قد يبلغ من الرقّة والشجو أن يقول فيه الشاعر القديم :

يُعارِضْنَ مِلواحاً كأنّ حَنِينَها قُبَيْلَ انْفِتاقِ الصُبْحِ تَرْجيعُ زامِرِ

٣١ – تَمَرَّض تَمريه الجَنوبُ مع الصَّبا تَهامٍ يمانٍ أنجدٌ وهْو مُعرِقُ

نبّه شارح الديوان في المتن ، على ما في البيت من الإخلال فقال :

(٥) رجّح – رحمه الله – أن يكون ضبط العجز : [ولجةَ حجّاجٍ وغابٍ يحرّق] ، مِن عطف [لجة] على خلايا ، وعطفِ [غاب] على حُجاج . وإنها لملاحظة يحوطها السداد ، وقد كنت عنها غافلاً حتى نبهني عليها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

[فيه زحاف] . وأما الدكتور المحقّق فقال ما نصه : [تهام يمان أنجد أو منجد : نسبة إلى الأقاليم الثلاثة المعروفة : تهامة واليمن ونجد . قول الشارح : « وهو معرق : فيه زحاف » غير صحيح] اهـ .

وفي شرح الأستاذ المحقّق ، وضبْطِه مفردات البيت أمور ، منها :

أ ـ ضَبَطَ كلمةَ [أنجد] بالتنوين : [أنجدٌ] فجعلها اسماً مصروفاً . لكن هذه الكلمة ، لمْ تجئ اسماً في حدود ما بين أيدي الناس اليوم من المعاجم ، وإنما هي فعلٌ ماض : [أَنْجَدَ] إذا ارتفع أو أخذ في بلاد نجد .

ب ـ قال الأستاذ المحقّق : [أنجد أو منجد : نسبة إلى ....] فجعل الكلمتين بمعنى واحد ، فسوّى بين الفعل والاسم ، ظاناً أن [أنجد] اسم ، وليس الأمر كذلك . .

جـ ـ أنكر الأستاذ المحقّق على شارح الديوان أن يرى في البيت زحافاً ، فنَسَبَ قولَه إلى عدم الصحة ، فقال : [قول الشارح : « وهو معرق فيه زحاف » ، غير صحيح] .

قلت : طبيعيّ أنّ مَنْ يجعلُ [أنجد] اسماً ، فيضبطه منوناً : [أنجدٌ] لا يرى في البيت زحافاً . لكنه لو قرأه [أَنْجَدَ] لرأى زحافاً منكراً ، جعل فيه الشاعرُ [فَعُوْلُنْ = فَعِلُنْ] .

كلّ هذا ، مع أن الشارح لم يُرِد إلى أن يقول : [وهو معرق فيه زحاف] كما وَهِمَ الأستاذ المحقّق ، وإنما فسّر بعض مفردات البيت ، حتى إذا تمّ له ذلك ، استأنف القول فقال : [فيه زحاف] . وقد عنى أن في البيت زحافاً منكراً ، لا يليق عدم التنبيه عليه ، وفيه ما فيه مِن النُكْر . هذا ما عناه الشارح ، ولم يعنِ أنّ : [وهو معرق] فيه زحاف[٦] !! فالذي قاله

(٦) وقف رحمه الله ـ عند كلمة [زحاف] ، ورغب في أن أنبّه على أن هذا =

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الشارح في المتن إذاً ، صحيح لا يعاب . وفضلاً على ذلك ، هاهنا مسألة ، هي أن الرواية عند أحمد نسيم هي : [فيه زحاف] وهذا يعني أنه يقبل استعمال [أزحف – يزحف] . وكان على الأستاذ المحقّق أن ينبّه هنا على أن ذلك سهو من الأستاذ نسيم ، أو أنه وارد في إحدى مخطوطات الديوان الخمس ... ولكنه لم يفعل ؛ وذلك تفريط .

٣٥ – وأضحتْ جبال البُحترين كلّها – وما قَطَنٌ منها بناجٍ – تُغَرَّقُ

وَصَف الشاعرُ قبل هذا البيت ، هطلان المطر ؛ الذي أتى به ذاك السحاب الجون المتراكم ، وكيف سحّ وسال وسقى ... وغرّق جبال البحتريين .

وقد شرح الأستاذ المحقّق مِن هذا البيت كلّه كلمةَ [قطن] . فقال : [القطن : القاطن المقيم] .

ولكنه لم يذكر ما يَؤُول إليه معنى البيت ، إذا كان القطن فيه هو القاطن . ونرى مِن حقّ النابغة الشيباني أن نقول : البحتريون – بنو بحتر – طائيّون . كانت اليمن منازلَهم . لكنّهم نزحوا عن اليمن فجاوروا بني أسد ، وغلبوهم على جَبَلَيْهم : [أجأ وسلمى] ، فاستقرّوا فيهما ، وورثوا منازل بني تميم بأرض نجد ، ومنازلَ غطفان مما يلي وادي القرى . فإذا قال الشاعر : [جبال البحتريين] فلأنّ البحتريين طائيون . وإنما يعني بجبالهم الجبالَ التي كانت لبني أسد ، ثم غلبتهم طيئ عليها .

وأمّا [قطَن] في البيت ، فليس هو القاطن المقيم ، وإنما هو جبل

= المصطلح العروضي ، قد اختلف مؤدّاه في حقبة من الزمن بعد حقبة . وعلى ذلك ، فإن شارح البيت في المتن قد استعمل كلمة الزحاف هنا بمعنى انكسار الوزن لا بمعنى التغيير ، الذي يعتري ثواني الأسباب خفيفةً أو ثقيلةً .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لبني أسد . ففي معجم ما استعجم ١٠٨٣/٣ : [قطن : بفتح أوّله وثانيه .... وقال أبو حنيفة : قطن جبل بنجد في بلاد بني أسد ، على يمينك إذا فارقت الحجاز وأنت صادر عن النقرة] . وفي معجم البلدان لياقوت ٣٧٤/٤ : [وقَطَنٌ : جبل لبني أسد في قول امرئ القيس يصف سحاباً :

أَصاحِ ترى برقاً أريك وميضه كلمع اليدين في حبيّ مكلّلِ

ثم يقول بعد أبيات :

على قَطَنٍ بالشَيْم أيمَنُ صوْبه وأَيْسَرُه على الستار فيذبُلِ

.... وقال بعض الأعراب :

سلّمْ على قَطَنٍ إن كنت نازلَه سلام من كان يهوى مَرّةً قَطَنَا]

ويقول ياقوت : [وقال الواقدي : قطن ماء ، ويقال جبل من أرض بني أسد بناحية فيد ، وغزوة قطن قتل بها مسعود بن عروة ، وأمير جيش رسول الله ﷺ أبو سلمة بن عبد الأسد] .

فـ [قَطَن] إذاً في البيت ، ليس القاطنَ المقيم ، كما وهم الأستاذ المحقّق ، وإنّما هو جبل بنجد . والعجب أن الأستاذ المحقّق لم يتنبّه لمرجع الضمير في قول الشاعر وهو يذكر تلك الجبال : [وما قطن منها] .

٣٧ – فأقلعَ – إذ خفَّ الرَبابُ فلم يَقُمْ – رُكامٌ تُزَجّيه الشَمالُ وتَسْحَقُ

ضبَط الأستاذ المحقّق كلمة [يقم] بضمّ القاف ، فهو عنده إذاً من [قام – يقوم] ، ولا معنى له في البيت ، إذ لا قيامَ هنا ولا قعود ، وإنما هو مضارع مجزوم ، من الرباعي : [أقام – يُقِيم] ، ثم بالجزم : [فلم يُقِمْ] ، بضم الياء وكسر القاف .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٤٥ – ترى حِزَقَ الثيران يحمينَ حائلاً فكلٌّ له لَدْنٌ سلاحٌ مُذَلَّقُ

قال الدكتور المحقّق في شرحه : [الحائل : الأنثى التي لا تحمل] . فنفى عنها أن تحمِل ، وكان الصواب أن يقول : [التي لم تحمل] ، إذ الحائل – وإن لم تحمل – خليقةٌ أن تحمل . ومن هنا كانت إضافةُ الثيران بها ، وحمايتُها لها . ولو كانت لا تحمل ، على معنى عُقْم رحمها ، لم تُطِف بها الثيران ولم تَحْمِها .

٤٩ – وكلُّ مِسَحٍّ أخدريٍّ مُكَدَّمٍ له عانةٌ فيها يظلّ ويَشهَقُ

٥٠ – بأكفالها من ذَبِّهِ بشباته خدودٌ وما يلقى أَمَرُّ وأَعْلَقُ

يصف الشاعر حمار وحش يحدو أتنه ، وذاك في تاريخ الشعر العربي كثير كثير ، لا تكاد تفتقده عند شاعر ، فصورة الحمار يعضّ أكفال الأتن ، وصورتها وهي ترمحه وتعدو أمامه ، تمتلئ بهما دواوين الشعراء . غير أن الجديد هو أن يكون لحمار الوحش قرن يطعن به أكفال إناثه . وهو ما ذهب إليه الأستاذ المحقّق في شرحه ، إذ قال : [الشباة : حدّ كل شيء والمراد بها هنا حدّ قرنه] . فجعل للحمار قرناً على الحقيقة ، كما ترى .

ولقد أوردت البيتين ٤٩ – ٥٠ معاً لكيلا يذهب بك الظن إلى أن الأستاذ المحقّق إنما أراد ثوراً ذا قرن حادّ . ولترى بنفسك ، أن ذلك راجع إلى [المسحّ الأخدريّ المكدّم] الذي له عانة فيها يظل ويشهق ، والذي من ذبّه بشباته خدود بأكفالها ، والذي يلقى من رمحها ما هو أمرّ وأعلق . ثم لتقرن كلّ ذلك بقول الأستاذ المحقّق : [شهيق الحمار : آخر صوته وهو ينهق] .

وأقول : لقد كان على المحقّق أن يقف عند هذا البيت ، فيعرض رواياته في المخطوطات الخمس التي ذكر أنها بين يديه ، ثم يختار منها – إذا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اختلفت – ما يليق بمعنى البيت ، وأن يذكر – إذا هي اتّفقت – أنه لم يهتد في النص إلى رأي يرضاه . وفي كل حال ، كان عليه أن يقف عند هذه الناجمة ولا يتخطّاها(٧) .

٥٣ – فمنهنَّ نُؤْيٌ خاشعٌ ومُشَعَّثٌ وسُفْعٌ ثلاثٌ قد بلينَ وأَوْرَقُ

قال الدكتور المحقق : [النؤي : حفير أو حاجز من تراب أو رمل يضرب حول الخيمة] .

قلت : إنما تُضرب الخيامُ ، وأما ضرْب النؤي فلم يُسمَع . يقال : النؤي حفرة حول الخيمة ، والنؤي يُعْمَل ويُسوّى حول الخيمة ، والنؤي يكون حول الخيمة الخ ... وأما ضرْب النؤي حول الخيمة فمرتجل ، لم يقله مِن قبلُ أحد في حدود علمنا .

٥٨ – كأن مُلاءَ المَحْضِ فوق متونِها ترى الأُكْمَ منه ترتدي وتُنَطَّقُ(٨)

يصف الشاعر في أربعة أبيات صحراءَ قطعها . والبيت/٥٨ آخرها . والدكتور المحقّق يشرح من هذا البيت كلمةَ [المحض] فيقول : [المحض ما تحلّب من العرق] .

ولو أخذنا بهذا الشرح لكان معنى البيت : كأنّ العرق المتحلّب من

(٧) لقد مال الأستاذ – رحمه الله – إلى أن الشاعر ، قد يكون أراد موضع القرن [الشباة] من رأس الحمار . قلت : هذا التخريج – الذي لا يمكن أن يمرّبه المرء إلا معجَباً – مبني على أن أثر عض الحمار أكفالَ الأتن ، يشبه أثر الطعن بقرن الثور ؛ وهو تخريج يُميط الغموضَ عن البيت ، وإن ظلّ في النفس منه شيء . وسواء أقبلته النفس أم لم تقبله ، لقد كان على المحقّق أن يقف هاهنا وقفة المعالج المتدبّر ، وألاّ يجعل للحمار – مهما بدر الأمر – قرناً يطعن به على الحقيقة .

(٨) رجّح الأستاذ – رحمه الله – أن يكون فِعْل [تُنَطَّقُ] مبنياً للمعلوم . أي [تَنَطَّقُ] .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الحيوانات في تلك البوادي ، ملاءةٌ تغطّي الآكام ، فيكون لها منه أرديةٌ ونُطُق !! هذا إذا لم نأخذ بما جاء في القاموس المحيط – مادة نطق – وفيه : [ونَطَّق الماءُ الأكمةَ وغيرها : بلغ نصفها] ، ولو أخذنا به لكان المعنى : أن العرق غطّى الآكام مرةً ، وبلغ نصفها مرةً أخرى !! .

وإنما أُتِيَ الدكتور المحقّق من المَيل إلى الدَعَة ، فآثر النقل عن أحمد نسيم ، على الجد في طلب معنى الكمة . ولقد بحثت في عشرة من المراجع الأمّهات عن أن المحض هو ما تحلّب من العرق ، فلم أجد ذلك . منها اللسان والقاموس والصحاح والمجمل والمقاييس والتاج ... فمَا أدري من أين نقل الأستاذ المحقّق هذا المعنى .

هذا ، على أن المحض من معانيه [القَتّ] وهو نبات عشبيّ كلئيّ ترعاه السائمة . والعرب تقول : أمحض فلان دابّته ، إذا علفها المحض . ولو أخذ المرء بهذا المعنى من معاني الكلمة ، ووَجَّه البيتَ في ظلّه ، لخلص إلى معنى ارتداء الآكام أثواباً منه ، وتَنَطُّقِها به نُطُقاً . ولكان لَمَحَ ما رمز إليه الشاعر من أنه رجل مشيّع ، مِن شمائله قطع مهامه تنأى عن أن تسومها ماشية أو ترعاها ، فتظل مكتسيةً أثوابَ هذا النبات ونَطُقَه[٩] .

---

(٩) لقد شغلت كلمةُ [المحض] في البيت بال الأستاذ – رحمه الله – أياماً وأسابيع ، ولولا شيء من التحرّز والتورّع ، لقلت شهوراً . فكان يهتف إلي مرة بعد مرة يذاكرني فيما اهتدى إليه من معانيها ودلالاتها ، في الصور الشعرية ، وتراكيبها ، ثم في توجيه معنى البيت في هدي ذلك . ولكنه ظلّ دوماً يرجّح أن الشاعر أراد في البيت معنى اكتساء الآكام أردية السراب . وأيّد ذلك عنده أن النابغة الشيباني قد ألحّ على هذه الصورة الشعرية مرات في شعره . وكنت أقول له : إن دون الأخذ بهذا الوجه عقبةً ، هي أن كتب اللغة لا تذكر أن [المحض] من معانيه السراب ، وأن تردّد اكتساء الآكام أردية السراب في ديوان شاعرنا لا يكفي لقيام حجة قاطعة على صحة هذا التوجيه ، إذ ليست هذه الصورة الشعرية مقصورة عليه ، بل هي منتشرة متفشية في الشعر القديم قصائد وأراجيز .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٦٩ – وخَطْمٌ كَسَتْه واضحاً من لُغامِها نَفَاه من اللَّحْيَيْن دَرْدٌ وأَرْوَقُ

يقول الشاعر ذلك في وصف ناقته . وقد وقف الدكتور المحقّق عند كلمة [دَرْد] فقال : [الدّرد : الذي سقطت أسنانه أو تحاتّت من الكبر فلحقت بمغارزها] . قلت : إن كتب اللغة لا تذكر كلمة [الدَرْد] بتسكين الراء . وإنما تذكر أنّ الرجل يوصف بـ [الدَّرَد] بفتح الحرف الثاني ، فيقال : [أَدْرَد بَيِّنُ الدَّرَد] ويجمع على [دُرْد] ، والأنثى [دَرْداء][١٠] .

٧٤ – مَناسِمُ رِجليها إذا ما تقاذفتْ يَدَاها وحُثَّتْ بالدوائر تَلْحَقُ

شرح الأستاذ المحقّق معنى [الدوائر] فقال ما نصّه : [الدوائر : واحدتها الدائرة ، وهي في الخيل ثماني عشرة دائرة ، منها دائرة القالع تكون تحت اللبد ، ودائرة اللطاة تكون في وسط الجبهة ، ودائرة الناخس تكون تحت الدبرين إلى نقرتي الورك ، ودائرة الهقعة تكون في عرض الزور ، ودائرة أخرى تكون تحت الأنف] اهـ .

قلت : هذا عمل المعجميّ ، فأين عمل المحقّق ؟ ولقد كنّا نقنع بأن يختار من هذه المعاني كلّها معنى واحداً يناسب ما في البيت ، ويوضح قصْدَ الشاعر ، والصورةَ التي أراد إليها . ولكن الأستاذ المحقّق لم يفعل .

وأرى أن الدوائر في البيت جمع دائرة ؛ والدائرة ما أحاط بالشيء ، ودائرة الحافر ما أحاط به . وعلى ذلك يكون المعنى : إذا حُثّت هذه الناقة

---

(١٠) علّق – رحمه الله – على تسكين الراء ، فقدّر أن الشاعر قد يكون بنى الوصف من [دَرِدَ] على [دَرِدٍ] ثم سكّن الراء فقال : [درْد] ، وتسكين عين الكلمة في قبيلة ربيعة كثير . قلت : مهما يدر الأمر ، فقد كان على الأستاذ المحقّق أن يعلّق على المسألة أو يبدي فيها رأياً ، أو يعتذر بأنه لم يهتد فيها إلى وجه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فأسرعت ، لحقت مناسمُ رجليها بدوائر يديها ، وذلك أشدّ ما يكون من سرعتها .

هذا ، على أن الدوائر وإن كانت للخيل في الأصل ، فإن مثل ذلك في الشعر يُستعار . قال علقمة الفحل يصف عَدْوَ الظليم :

يكاد منسمُه يَخْتَلُّ مقلتَه كأنه حاذِرٌ للنَّخْس مَشْهومُ

ومعروفٌ أن ذكرَ النعام [الظليم] له ظلف ، وإنما المنسم للبعير . ولكنه استعاره له . ومثل ذلك في الشعر كثير(١١) .

وبعد ، فقد بلغت القصيدة اثنين وثمانين بيتاً ، فيها ما قصّر عن أن يكون جميلاً ، وفيها ما لحِق ، وأما ما يروع ، فالأبيات الخمسة التي ختم بها الشاعر قصيدته . ويصف فيها منزلاً نزله ليرتاح ويريح ناقته . وما أظن كثيراً من الشعراء المجيدين يبلغون ما بلغه شاعرنا فيها(١٢) . وإن ممّا يؤلم أن هذه الأبيات الخمسة قد أساء الشرح والرواية إلى أربعة منها أيَّ إساءة !! وإليكها(١٣) وما أساء إليها لترى ذلك بنفسك :

٧٨ – إذا حُلّ عنها كُوْرُها خَرَّ عنده طَليحان مجْتَرٌّ وأشْعَثُ مُطْرِقُ

(١١) رجّح – رحمه الله – أن تكون الكلمة مصحّفة ، وأن صوابها [الدوابر] ، جمعاً لـ [دابرة] ، وهي مؤخّر الحافر .

(١٢) علّق – رحمه الله – على قولي هذا فقال : بل هناك كثيرون منهم بلغوا ذلك وتجاوزوه .

(١٣) عاب قولي [إليكها] بمعنى [دونكها] ، فقال إن بعض نحاة العصر قد استحدثوا هذا الاستعمال . فقلت : بل أُراه استعمالاً قديماً . ثم لقيت الأستاذ النجار بعد أيام فرجوته أن ينقل إليه ، أن هذا الاستعمال ورد في قصيدة رائية للشاعر ابن منير الطرابلسي المتوفى سنة/٥٤٨هـ . يقول فيها مفتخراً بنظمها :

وإليكها بدوية رقّت لرقتها الحضرْ
شاميّة لو شامها قسّ الفصاحة لافتخرْ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٧٩ – ومـاءٍ كأن الزيتَ فـوق جِمـامه متى مـا يَذُقْهُ فُرَّطُ القوم يَسْبِقُ

يريد الشاعر أنّ ما وجده من الماء في طريقه ، كان في بئر عميقة ، فهو راكد ، كأنّ الزيت يعلوه . فإذا شرب منه المسافرون مرضوا أو كادوا ، لما فيه من سوء الطعم والرائحة .

هذا ما نرى أن الشاعر أراد إليه ؛ وأما الدكتور المحقّق فكان له في معاني المفردات ودلالاتها آراء أخرى ، أُوردُها لك ، مع التعليق عليها فيما يلي :

أولاً : قال : [يسبق : كذا في (الأصل) أي يتقدم ، وهو الأصح عندنا ، وفي (ش) : يبسق ، ومعناه يطول ويتمّ طوله ، وهو تحريف مع صحة المعنى ، وفي (م) : يسنق ، ومعناه يبشم ويتخم ، وهو تحريف مع صحة المعنى] اهـ .

قلت : كيف يصح المعنى وهو مرةً سَبْقٌ ، ومرةً طُولٌ ، ومرةً تُخمة ؟! بل كل ذلك غير صحيح ؛ وسأبيّن لك ذلك بعد قليل .

ثانياً : قال : [الفُرَّط : المتقدم من القوم إلى الورود] .

قلت : قول الأستاذ المحقّق مبتدَع مرتجل . فالفُرَّط ليس مفرداً . بل هو جمعُ [فارط] وهو المتقدم . إذ وزْنُ [فُعَّل] جمعٌ لصفةٍ صحيحةِ اللام وزْنُها فاعِل أو فاعِلة . فهو : لراكعٍ : رُكَّع ، ولصائم : صوّم ، ولنائم : نوّم ، ولفارط : فُرَّط .

والعجيب أن الأستاذ المحقّق لم ينتبه لـ[متى] وعملِها الجزمَ في [يذقْه] ، فأَورد فِعلَ [يسبقُ] مرفوعاً ، وكان حقّه الجزم . وأورده مفرداً ، لإعراضه عن معنى الجمع في [فرّط] ، وكان حقّه الجمع .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ثم إن الأستاذ المحقّق لم يقل للقارئ ما معنى : [متى يذقْه المتقدمُ يسبقُ] . والذي نراه أن في [يسبق] تصحيفاً وتحريفاً . والصواب : [يسنقُوا] بالنون لا بالباء ، وبالجمع لا بالإفراد . وإليك البيان :

أ – هو للجمع ، لأن الضمير فيه يرجع إلى [فرّط] ، وهو جمع [فارط] .

ب – هو مجزوم بأنه جواب الشرط : [متى ما يذقه .... يسنقوا] .

جـ – هو من مادة [سنِق – يسنَق] إذا بشم . يقال : [أَسْنَقَه – يُسْنِقه] ، بمعنى : داناه من المرض . والشاعر إنما أراد أن الفرّط من القوم ، إذا سبقوا إليه فذاقوه ليعرفوا أصالحٌ هو للشرب أم لا ؟ أصابهم من مذاقهم له ، ما يكاد يمرضهم . ففي « البارع » للقالي/٤٧٧ ما نصّه : [وقال الخليل : تقول سَنِقَ الحمار وكلُّ دابّة ، سَنَقاً ، إذا أكل من الرطب حتى كاد يصيبه كالبشم] ، ثم شرع يفصّل فقال : [والفصيل إذا أكثر من اللبن حتى **يكاد يمرض** ، تقول سنق][١٤] اهـ .

٨٠ – فَوَصَّلتُ أرماثاً قِصاراً وبعضها
ضَعِيفُ القُوى بِمحْمَلِ السيفِ موْثَقُ

كأنّ الشاعر يريد هنا أن يقول : الحاجة أمّ الاختراع ، فلقد وَجد الماءَ بعيداً تناوله ، فعمد إلى ما وجد في رَحْله من قِطَعِ حِبال [أرماث] فوصّلها ليجعل منها حبْلاً . فلمّا تبيّن له أنها قصّرت عن أن تبلغ الماء ، عمد إلى حمائل سيفه فوصّلها بها ، فتمّ له ما أراد .

(١٤) ذكر – رحمه الله – أن الأرجح عنده أن تكون الرواية : [متى ما يذقه فرّط القوم يصقوا] .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولقد ذكّرني هذا ما كنت قرأته يوماً في رحلة ابن بطّوطة ، فقد اشتدّ به الظمأ وهو مسافر ، وأفضى به سَيْره إلى بئر ، ولم يجد ما يستقي به منها ؛ قال : [فربطت خرقة كانت على رأسي بالحبل وامتصصت ما تعلّق بها من الماء ...] .

فانظر – بعد الذي بينته لك – إلى ما قاله الدكتور المحقّق في شرح [الأرماث] قال : [الأرماث : جمع رمث – بفتح الميم – وهو خشب يضّم بعضه إلى بعض ويركب في البحر] .

قلت : أيّ بحر هذا ؟! إنما الأرماث في البيت ، جمع الرَّمث ، وهو الحبْلُ الخَلَق .

٨١ – إلى سَفْرَةٍ ، أمّا عُراها فَرَثّةٌ ضعافٌ ، وأما بَطْنُها فَمُحَرَّق

يريد الشاعر أن يقول : فلمّا تمّ لي ما أردت من إعداد الحبل ، وصلْتُه إلى سُفْرة (بضم السين – لا بفتحها – وهي وعاء طعام السفر) قد رثّ أديمها لطول العهد بها ، وكثرة استعمالي لها في أسفاري . فهي بالية الأطراف ، مخرّقة الوسط ، لا تكاد تمسك من الماء إلا وَشَلا . فجعلتُها بمنزلة الدلو ؛ وعلى هذا فإن الجار والمجرور : [إلى سُفرة] متعلّقان بـ [وصّلت] في البيت السابق/٨٠ ؛ قال ثعلب في شرح ديوان زهير/٢٦٠ : [إذا لم يكن لهم دلوٌ ، استقَوا بالسُّفرة التي يأكلون عليها] .

وفي اللسان : [والسُّفرة بالضم طعامُ يتّخذ للمسافر ، وبه سمّيت سُفرة الجلد] . ثم قال : [السُّفرة : طعامٌ يتّخذه المسافر ، وأكثر ما يُحمل ، في جلد مستدير ، فنُقل اسمُ الطعام إليه وسمّي به] .

أمّا الآن ، فانظر إلى شرح المحقّق . قال : [السَّفرة : الناقة التي تعوّدت على « كذا » الأسفار] .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قلت : أيّ ناقة هذه ؟! فالبيت لا علاقة له بالناقة من قريب ولا من بعيد . وإنما هو وصفٌ لما استقى به الشاعر ، فجعله بمنزلة الدلو ، وهو وعاء طعام السفر ، ليس غير .

وهاهنا – في كل حال – مسائل :

الأولى : لفظية : وهي أن [السَّفرة] بفتح السين خطأ ، والصواب الضمّ : [السُّفرة] .

والثانية : معنوية : وهي أن [السفرة] مهما يكن ضبطها ، ليس لها معنى الناقة التي تُركَب في السفر . إذ الناقة : [مِسْفَرة ، ومِسْفار] . ففي اللسان : [وبعير مِسْفَر : قويّ على السفر ؛ وأنشد ابن الأعرابي للنمر بن تولب :

أَجَزْتُ إليكَ سُهوبَ الفلاةِ ورَحْلِي على جَمَلٍ مِسْفَرِ

وناقة مِسْفَرة ومِسْفار كذلك] اهـ .

ثم هَبْنا قبلنا جَدَلاً ما ذهب إليه المحقّق ، من أن السفرة هي الناقة ، فكيف يُخرِّج للقارئ قولَ الشاعر في وَصْفِها : [... أما عراها فرثّة ضعاف ، وأمّا بطنها فمخرق] ؟ .

والثالثة : نحوية : وقد أنشأها شرحُ الأستاذ المحقّق لمفردات البيتين [٨٠ و ٨١] . وحصيلتُها أن الأرماث عنده خشبٌ يُضم بعضُه إلى بعض فيُركَب في البحر ، والسفرة ناقةٌ ، وَصَفَها الشاعر بأنها مخرّقة البطن . فالمعنى إذاً هو : وصّلت خشباً إلى ناقة مخرّقة . وإذ قد كان هذا التوصيل مستحيلاً عقلاً ، فقد غَدَا تعليق الجار والمجرور : [إلى سفرة] بغير متعلَّق ، وانفصمت بذلك العروة بين البيتين [٨٠ و ٨١] .

والرابعة : لغوية: وهي أن [تعوّد] إنما يتعدّى بنفسه ، ففي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الحديث : [تعوّدوا الخير فإن الخير عادة ...] . فقول الدكتور المحقّق في الشرح : [السفرة : الناقة التي تعوّدت على الأسفار] استعمالٌ عاميّ لا أصل له . ثم إن البيت الآتي :

٨٢ – أَلُدُّ بما آلتْ من الماءِ جَسْرَةً تَكادُ إذا لُدَّتْ من الجهدِ تَشْرَقُ

فيه ضمير هو فاعلُ [آلت] ، راجعٌ بالضرورة إلى تلك [السفرة] – إذ ليس له مرجع سواها . ولقد علمتَ أن الأستاذ المحقّق قال : السفرة ناقة . وهو بقوله هذا قد هدم معنى البيت ، لأنه يُؤوّل – على حسب تخريج الأستاذ – إلى أن للشاعر ناقتين ، لا ناقة واحدة : ناقة تجلب الماء ، وأخرى تُسقى به . وذاك أن حَلَّ البيت – بناء على أن الناقة هي مرجع الضمير – يصبح كما ترى : [أسقي بما رجعتْ به الناقةُ من الماء ، ناقةً جسرةً تكاد تشرق] . وذلك غير مستقيم ، ونظم البيت لا يعين عليه .

أمّا حاقّ المعنى فأنّ الشاعر أراد : لقد سقيتُ ناقتي المجهدة العطشى ، ما أمسكتْه ورجعتْ به سُفْرتي – البالية المخرقة – من الماء . وعلى أنه وَشَلٌ لا يُشرق به في العادة ، لقد كادت تَشْرق به من جهدها ولهاثها .

ولقد تخطّى الأستاذ المحقّق كل ذلك – وهو كثيرٌ تَخَطّيه كما ترى – واكتفى بأن تابع أحمد نسيم ، فنقل عنه شرحه لمفردات البيت حرفاً حرفاً ، فقال : [ألدّ : أسقي ، مأخوذ من اللدود وهو ما سقيه الإنسان في أحد شقّي الفم] . ثم تابع النقل فقال : [آلت : حلت] . ولقد نظرت في قولهما : [آلت : حلت] فلم أتبيّن ما أرادا ، ولا رأيت له وجهاً اللهمّ إلا أن يكون أحمد نسيم قد أراد بـ [حلت] ما يراد بقولهم : [حلا منه بخير] ، إذا أصاب منه خيراً ، أو ظفر منه بنصيب ، ثم تابعه الأستاذ المحقّق ، مطمئناً إلى علمه ، وجزالة إيجازه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وفي كل حال ، لقد أحسن الأستاذ المحقّق صنعاً إذ لم يستمرّ في الاستفادة من شروح أحمد نسيم ، فظلّ مستمسكاً بأن الشاعر يصف ناقة ، إذ قال : [آلت : حلت . الجسرة : الناقة الضخمة الطويلة والماضية] ، على حين رآها أحمد نسيم سفينة . إذ قال : [آلت : حلت . والجسرة : الماضية ، والمراد بها هنا السفينة]!! .

وبعد ، فلقد اجتزأتُ بالتعليق على ما أصاب ألفاظَ الشاعر ومعانيَها .... وأما ما تعهّد الأستاذ المحقّق به في الصفحة /٦/ ، من إجراء [المقابلات والمقارنات الدقيقة الوافية] بين المخطوطات الخمس التي قال إنها كانت عمدتَه في التحقيق ، فلم أَعرض له ؛ وذلك أن المحقّق لم يذكره ولا عرّج عليه .

ولم أتمكن كذلك من النظر فيما قال عنه في الصفحة /١٨/ إنه أخطاء [ارتكب الشنقيطي نفسُه جزءاً منها] !! وذلك أن الأستاذ المحقّق لم يعرض لها ولا ذكرها .

ومهما يدر الأمر ، فإن المرء يخطئ ويصيب ، فما كان ممّا قلناه صواباً فقربان من قرابين الحقيقة ، وما كان منه خطأً فمِن عثرات مضمارها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net